الجلـــوسيماتيـــة Glossématique

لويس يلمسلف Louis Hjelmslev

تقديم : أصوالد ديكرو

ترجمة :عبد الكريم برّاشد
جامعة تلمسان

تقدّم النّظريّة الجلوسيماتيّة Glossématique ، المعدّة من اللّسانيّ الدّانماركيّ لويـــس يلمسلف Louis Hjelmslev، على أنّها شرح الأحداس العميقة Intuitions profondes لسوســـير F.De saussure ؛ بيد أنّ هذا الإخلاص والنّزاهة الفائقين ، سرعان ما يجعلان يلمسلف يتخلّى عن بعض طروحات سويسر ، المحكوم عليها بالسّطحيّة Thèses Superficielles من جهة ، وعن التّأويل الوظيفيّ Interprétation Fonctionnelle، وبخاصّة التّأويل الفونولوجيّPhonologique للنّظريّة السّوسيريّة، الّتي تكون نوعا من الخداع والتّنكّر.

ولعــلّ أهــمّ ما تلقّفه يمسلف من حلْقات سوسير Cours حقيقتان غايتان في الأهمّيّة ، هما كما يأتي:

1. إنّ اللّغة ليست ماهية ، بل إنّها شكل.
2. إنّ كــلّ لغــة هي تعبير ومحتوى ؛ وهذان الطّرحان يأتلفان عند سوسير عــبر نظريّة التّعبير Théorie du signeويتّحدان. وإذا كان ينبغي لكلّ لغة أن

تتمـــيّز ، لـــيس فقط من حيث التّعبير ، أي عبر الأصوات الّتي تختارها وتنتقيها لإبـــلاغ المعـــنى ، ولكن أيضا من حيث المحتوى ، أي من خلال الطّريقة الّتي تعـــرض بها المعنى ، فإنّ معنى ذلك أنّ أدلّة لغة ما وعلاماتها ، نادرا ما يكون لهـــا مقابلات دلاليّة ومعادلات حقيقيّة ، أي مرادفات في لغة أخرى ؛ لنأخذ كلمة Schätzen الألمانـــية مـــثلا ، الّتـــي غالـــبا ما نترجمها ، على المعتاد إلى الفعل Estimer : قـــدّر وعدّ ؛ فإنّها من حيث الحقيقة تتضمّن نوعا من التّفرّد والتّباين الغريبين ، بمقارنتنا إيّاها باللّفظ الفرنسيّ المذكور عاليه.

لذا إذن يستحيل علينا أن نختزل لغة ما ، بل لا نعرف إلى ذلك طريقا ، عبر لعـــبة عناويـــن غرضها تعيين أشياء ، بل مفاهيم سابقة للوجود . كما لا نستطيع عدّها مدوّنة ؛ ومعنى هذا أنّه ينبغي وصفها من حيث المحتوى أيضا.

ثـــمّ إنّ التّفكـــير في الدّليل اللّسانيذ هو الّذي أوصل سوسير إلى إعلانه كون اللّغة ، من قبل ، شكلا وليست ماهية . والحقّ : أين يتمثّل ، من حيث الدّلالة ، الاخـــتلاف والفـــرق بين لغتين ثنتين ؟؟؟ لا شكّ أنّه ليس في المعاني الّتي تعبّر عنها ، ما دمنا نستطيع ترجمتها. ولا شيء يمنع من حدّ هذا التّباين في الفرنسيّة الموجود في كلمة Schätzen الألمانيّة وتعيينه. ولعلّ الّذي يصنع هذه الفروق هو كـــون هـــذا التّباين أو ذاك ، المعبّر عنه بالدّليل ذاته ، ينبغي أن يعبّر عنه بأدلّة أخـــرى وعلامـــات. وهكـــذا يدخـــل في الحقيقة الدّلاليّة الموضوعيذة Réalité sémantique substantielle (= جوهريّة) ، تقطيع أصليّ ، مستخلص مباشرة من نظـــام العلامات والأدلّة ، ذلكم هو المظهر والهيئة اللّذين كان سوسير يسمهما ، أحيانا ، بشكل اللّغة. ونلاحظ بأنّ هذه الدّرجة الكبيرة من الأوّليّة والأسبقيّة ، بل

مـــن القداســـة المنعوت بها هذا الشّكل ، تنسل مباشرة من مبدأ التّباين والتّناظر والتّقابل و التّناقض .

إنّ القـــول : إنّ الدّليل اللّسانيّ يتميّز فقط بما يميّزه عن الأدلّة الأخرى ، بما يخـــتلف بـــه عنها ، وكقولنا أيضا : إنّ حدوده ومعانيه بخاصّة تكوّن حدثا أوّليّا غير متوقّع يستحيل استنتاجه واستنباطه من معارف الطّبيعة أو الفكر .... ومعنى هـــذا إذن هـــو عدّ شكل اللّغة موضوعا لعلم مستقل ، قائم برأسه ، متعذّر تقليله واختزاله...

(ملحوظة NB : إنّ ما تمّ بيانه هاهنا ، من حيث الطّبيعة الدّلاليّة للعلامة ، مطـــبّق وفـــق منظور سوسير ، من حيث هيئته الصّوتيّة ، وهو ما يكوّن القيمة الصّـــوتيّة للدّلـــيل اللّســـانيّ ، و ما يميّزه عن الأدلّة الأخرى ، بشكل تعكس فيه علامات لغة ما وأدلّتها، في ميدان الصّوت ومجاله ، مظهرا أصيلا قوامُه الشّكل في هاته اللّغة.

وإذا كـــان يلمســـلف يستحسن الفكرة الّتي تقود التّقابل السّوسيريّ بين الشّكل والجوهـــر Forme et substance ويقبلها، فإنّه يريد أن يصل عبر هذا التّمييز إلى أبعد ممّا توصّل إليه سوسير ؛ والمؤكّد أنّ الوحدات اللّسانيّة تقحم تقطيعا أصيلا فـــي عـــالم الصّوت والمعنى ومجاليهما. ولكن للتّمكّن من القيام بذلك ينبغي أن تكـــون شيئا آخر غير هذا التّقطيع ، بل شيئا آخر غير هذه الجهات الّتي تخصّ المعانـــي الجوهـــريّة الّتـــي تجد ذاتها مستغلّة ومستثمرة استثمارا . ولكي يكون بإمكانها أنْ تعكس الواقع ينبغي لها أن توجد مستقلّة في هذا الواقع . ولكن كيف

يباشر اللّسانيّ التّعريف بها ، إذا فرض القيام بالتّجريد على حقائقها القريبة إلى الفكر والعقل والذّهن منها إلى عالم الحسّ والإدراك ؟ ؟؟

الأكيد أنّه ليس عبر اللّجوء إلى مبدإ التّقابل ، هذا اللّجوء الّذي نسمّيه المفهوم الأوّل عند سوسير Concept، ما دام يوصلنا إلى تعيين الوحدة بطريقة إيجابيّة ، ولا يطلب منّا سوى حدّها بما يميّزها عن سواها .

وأغلب الظّنّ أنّ الحلّ في نظريّة يلمسلف ، هو التّطوير الأقصى لمفهوم سوسيريّ ثان آخر ، الّذي تغدو الوحدة السّلبيّة الخالصة والعلاقة ، من خلاله ، عاجزة عن الحدّ والتّعريف . والشّيء الأهمّ الأوحد هو اختلافها المحض عن غيرها ... ولكن فقط عن طريق العلاقات الّتي تربطها بغيرها من وحدات اللّغة. وبالمثل فإنّنا لا نبغي من رموز نظام شكليّ ما سوى أن تكون مغايرة بعضها البعض ، ومرتبطة فيما بينها بقواعد ذات وظائف تفسيريّة.

وقد نشرع ، والحال هذه ، نقوم بالتّجريد من حيث المعنى وكذا من حيث البيانات المدركة بالحواس . وإذا كانت اللّغة شكلا لا جوهرا ، فإنّ ذلك ليس من قبيل كونها لا تقحم تقطيعا أصيلا ، ولكن من حيث اقتضاء وحداتها تعريفا وحدّا، عبر قواعد يمكن استبدالها وتركيبها ، من خلال ما تتيحه من إمكانات أداء . ومن هاهنا نلفي فكرة كون لغة ما بإمكانها أن تبقى رئيسة موحّدة مع ذاتها ؛ عندها نحوّر ونبدّل ، في الوقت ذاته ، المعاني الّتي تعبّر عنها وكذا تلك الوسائل الماديّة الّتي تستعملها ، كمثل حال تحويلنا لغة منطوقة إلى لغة مكتوبة ، أو حركيّة أو مرسومة ، في نظام من العلاقات عبر أروقة وأجنحة معيّنة .

وبالـــرّغم مـــن أنّ هذا الطّرح يقوم على بعض أفكار سوسير وفقراته ، فإنّ يلمسلف يعتقد أنّه كان الأوّل الّذي بسطه وفسّره ، بل أعدّه ، إلى درجة أنّنا نجد تعريف العلاقات التّركيبيّة والتّأسيسيّة لكلّ لغة ، على حسب زعم يلمسلف ، إنّما تقود إلى تمييز ثلاثة مستويات ، بينما كان سوسير لا يرى فيها سوى اثنين . إنّ الماهـــية السّوســـيريّة ، أي الحقيقة الدّلاليّة أو الصّوتيّة المعتبرة مستقلّة عن أيّ استعمال لسانيّ ، يدعوها يلمسلف مادّة Purport .

إنّ التّرجمة الفرنسيّة لمقدّمات يلمسلف تتحدّث ، بجرأة كبيرة ، عن المعنى . وإنّ الشّكل في المفهوم الأوّل عند سوسير ، المنظور إليه على أنّه تقطيع وهيئة ، يسمّيه يلمسلف ماهية وجوهرا ، بينما يحتفظ بمصطلح شكل لتلك الشّبكة التّعليقيّة الّتي تحدّ الوحدات (= الشّكل في المفهوم (2) لسوسير) .

ولأجـــل جمـــع المســـتويات الثّلاثة وربطها فإنّ الجلوسيماتيّة تستعمل مفهوم البـــيانات ، بحيـــث يغـــدو الجوهر أو الماهية بيانات للشّكل في المادّة ؛ إنّ هذا التّأويل الجديد لمبدإ سوسير القائل : إنّ اللّغة شكل لا جوهر ، الّذي جرّ يلمسلف إلى تأويل جديد هو تأكيد كون اللّغات متميّزة ، من حيث التّعبير من جهة ، ومن حيث المحتوى من ناحية أخرى .

إنّ هذه الحقيقة تعني ، بالنّسبة لسوسير ، أنّ الطّريقة الّتي تتوزّع بها علامات لغـــة مـــا فـــيما بينها ، يقحم المعنى فيها ، تقطيعا أصيلا لا يقلّ أصالة عن ذاك المؤسّـــس والقـــائم فـــي الميدان الصّوتيّ . ولكن لنفترض أنّنا نقوم بتجريد هذه التّقطـــيعات ، المعدودة ظواهر للجوهر، فإنّه لكي لا نعدّ العلاقات التّركيبيّة بين الوحـــدات ، أي الشّكل الحقيقيّ والأصليّ ، حسب يلمسلف ، ينبغي إذن الإقلاع

عــن التّميــيز بين التّعبير والمحتوى ، ما دام شكلها موحّدا ومماثلا ؛ فالعلاقات التّركيبيّة الّتي تجمع بين الأدلّة تربط أيضا بين معانيها أكثر من حقائقها الصّوتيّة؛ ولأجل إنقاذ التّمييز بين التّعبير والمحتوى والإبقاء عليه كان لزاما على يلمسلف أن يتــنازل عــن فكرة كون الوحدة اللّسانيّة كامنة في الدّليل . وعليه فإنّ مهمّته أصــبحت ســهلة بعد أن توصّل علماء الأصوات إلى وحدات لسانيّة أصغر من الدّليل عينه ، بوساطة الاستبدال Commutation... تلكم هي الفونيمات .

إنّ الدّليل« Veau» يحوي فونيمين هما «V و O » ؛ إذن فإنّ المنهج نفسه المطبّق على المحتوى يتيح التّمييز ، في هذا الدّليل المتقدّم ، ثلاثة عناصر دلاليّة علــى أقــلّ تقدير ، وهي الّتي تدعى ، أحيانا Semes سيم ، وBovin بقريّ ، وMal ذكــر ، و Jeûne صغير ، إذ من الواضح أنّ الوحدات الدّلاليّة والصّوتيّة الموســومة هكــذا ، بإمكانها أن تتميّز ، من حيث الشّكل . إنّ القواعد التّركيبيّة المتعلّقة بفونيمات لغة ما ، وتلك الّتي تتعلّق بالسّيمات Sémes، يستحيل وضعها فــي خانة التّوافق والتّطابق ؛ وهذا ما يعبّر عنه يلمسلف بقوله : إنّ المخطّطين الاثنين ليسا متطابقين .

NB : والملاحــظ أنّ هــذا الافــتقار في التّطابق لا يمنع من وجود تشاكل بينهما، أي أن نجد من الجانبين كليهما النّوع نفسه من العلاقات التّركيبيّة .

إنّ المــوادّ والجواهر والأشكال تتضاعف وفق ما يتعلّق بالتّعبير والمحتوى، وهــو مــا ينــتج عنه ، في الأخير ، ستّة مستويات لسانيّة رئيسة . ونقيّد هاهنا حديث يلمسلف عن شكل للمحتوى بخاصّة. إنّ شكلانيّته ، على نقيض التّوزيعيّة Distributionnalisme، لا تتضــمّن رفضا لعدّ المعنى والتّمكين له ، ولكنّ الرّغبة

فـــي إعطـــاء وصف شكليّ لحوادث المعنى . وهذا ما يسمّيه **A.Culioli** الدّلالة الشّكليّة Sémantique Formelle.

يســـتعمل يلمسلف المنهج الفونولوجيّ لكي يدحض أسبقيّة العلامة ، ويخضعه للنّقد ذاته الّذي يوجّهه لمبدإ التّعارض والتّقابل ، الّذي يولّده وينجم عنه. ذلكم أنّ الاستبدال ، عند ، يلمسلف ، يستعمل لاستكشاف العناصر اللّسانيّة الدّنيا للعلامة ؛ ولكـــنّها لا تســـمح بحدّها وإدراك حقيقتها . بينما يشرع الفونولوجيّ يعرّف كلّ فونيم Phonème بما يميّزه عن غيره ؛ إنّ يلمسلف لا يعرّف العناصر سوى من حيث علاقاتها التّركيبيّة النّسقيّة ؛ ونضرب لكم تمييزه بين الرّسم البيانيّ والمعيار مـــثلا، فلكـــي يوضّـــح جـــدّا هذا الفرق مع الفونولوجيا ، راح يلمسلف يخترع اصطلاحا خاصّا .

إنّ العنصر اللّسانيّ ، الموجود عن طريق الاستبدال ، المعرّف شكليّا ، يسمّى Glosséme (1) – وتدعـــى جلوســـيمات التّعبير الموافقة ، بانتظام ، لعلامات النّـــثر والفونـــيمات أي وحدة عروضيّة نطقيّة Prosodème (2) ، كما تسمّى الوحـــدة الخالـــية مـــن المعنى Cénemes (3) ؛ أمّا تلك المتعلّقة بالمحتوى ، المـــتوافقة بانتظام مع مدلولات العناصر النّحويّة والمعجميّة ، فهي المورفيمات ، وكذا تلك المتعلّقة بصور ومعاني المحتوى Plérème . .

ولقـــد نعلـــم أنّ مفهوم Taxéme ، أي العلامة النّحويّة البسيطة ، المستعملة بطـــريقة مـــتفرّقة ومتشـــتّتة Sporadique فقط ، يعطي متناظرا شكليّا للعلاقة التّمييزيّة ويُكسبه إيّاه .

وفـــي حـــال إعطاء الجلوسيماتيّة دورا مركزيّا للشّكل المُعَرَّى من كلّ حقيقة دلالـــيّة وصوتيّة ، والمتنصّل منه تماما Epurée de toute réalité sémantique ou Phonique ، فإنّهـــا تســـعى فـــي المقـــام الثّاني إلى نفي الوظيفة وكذا إقصائها Relègue la fonction . وبخاصّـــة ذاك الـــدّور الّتـــي تؤدّيه اللّغة في التّواصل Communication. ذلـــك أنّ هـــذا الـــدّور مرتبط أساسا بالجوهر ؛ غير أنّ هذا التّجريد يبيح لنا ، في الوقت عينه ، تقريب اللّغات الطّبيعيّة من مجموعة أخرى مـــن الكـــلام الوظيفيّ الّذي يكون مختلفا ، من حيث الوظيفة والمادّة Langages différents fonctionnellement et matériellement fort .

وإذا كان أمر دراسة اللّغات الطّبيعيّة Langues naturelles يسير وفق مبدإ التّجريد فإنّه سيفضي حتمـــا إلى ما كـــان يرومـــه سوســـير ويبغيه ، تلكم هي دراســـة عامّة للكـــلام ، أي إلى السّيميـــولوجـــيا Etude générale des langages (Sémiologie) .

ووفـــق هذا يقترح علينا يلمسلف دراسة نمطيّـــة Typologie d'ensemble des langages،

من مجموع الكلام ، مؤسّسة على خصائص شكليّة ومبنيّة عليها فقط Fondée sur leurs propriétés formelles.

وإذا أردنـــا تعريف كلام ما Définition ، عن طريق وجود خطّتين ، فإنّنا ســـنكون بصـــدد الحديث عن اللّغة الأصليّة Langue conforme ؛ هذه اللّغة الّتي تكون عندما تكون الخطّتان الثّنتان لهما النّظام الشّكليّ ذاته Même organisation formelle ، ولا يفترقان في سوى الماهيه والجوهر Substance ولعلّه حال اللّغات الطّبيعـــيّة ، إذا كانـــت وحداتهـــا رئيســـة للعلامات ؛ إنّه أمر الأنظمة الشّكليّة

للرّياضـــيّين Cas des systèmes formels des mathématiciens فـــي الصّورة الّتي يضـــعها يلمسلف ويقترحها ، حيث تكون عناصرها وعلاقاتها دائما على علاقة وتـــرابط ثنائـــيّ متـــبادل مـــع تلـــك المرتبطة بتأويلات دلاليّة Interprétation sémantique.

ويمكننا الحديث ، ضمن اللّغات غير المتطابقة ، عن اللّغة المعجميّة عندما لا تكـــون كلتا الخطّتين كلاما ، ومثل ذلك اللّغات الطّبيعيّة في استعمالاتها العاديّة . وإذا كانـــت خطّـــة المحتوى هي ذاتها كلاما فإنّنا نجد أنفسنا بإزاء وظيفة تعدّي اللّغـــة Métalangue ؛ ونمـــثّل لذلـــك باللّغة التّقنيّة المستعملة في وصف اللّغات الطّبيعيّة Langue technique pour la description des langues naturelles.

أخـــيرا إذا كانت خطّة التّعبير ، الّتي هي كلام في الوقت ذاته ، فإنّ ذلك يعنـــي الحديث عن لغة ذات أبعاد دلاليّة Connotative ، ذلك أنّ هناك بعدا دلاليّا Connotation فـــي نظـــريّة يلمســـلف عندما يكون العنصر الدّالّ Les éléments signifiant هـــو اســـتعمال تلـــك اللّغـــة أو هاتيك ؛ فلمّا يستعمل Stendhal كلمة إيطاليّة، فإنّ الدّالذ ليس هو اللّفظ المستعمل فقط ، بل فكرة الرّجوع إلى الإيطاليّة لأجـــل التّعبـــير عـــن فكرة ما ، إذ إنّ هذا الرّجوع له مدلول ، هو فكرة الحبّ والمـــودّة والحريّة المرتبطة ، في عالم Stendhal ، بإيطاليا Le signifiant est moins le mot choisi que le fait de l'avoir choisi .

وهكـــذا تمـــنح اللّغات الطّبيعيّة ، في استعمالاتها الأدبيّة مثالا قارّا عن كلام بأبعـــاد دلالـــيّة ، ذلـــك أنّـــه ، في هذا الاستعمال ، يغدو الدّالّ ماثلا في عملية الاختيار، أكثر من اللفظ المختار.

إنّ جهد التّجريد Abstraction الّذي يفرضه يلمسلف ، في دراساته ، له ، على النّقيض من ذلك ، دور هامّ في توسيع الحقل اللّسانيّ الّذي استثمرته السّيميولوجيا الحديثة Considérable élargissement du champ linguistique dont a profiter toute la sémiologie moderne.

الهوامش والتّعليقات :

1) نسمّي Glossème الأشكال الصّغرى ، الّتي تحدّ ، من حيث التّعبير والمحتوى ، عبر التّحليل أشكالا غير متغيّرة ، ومتعذّر علينا تخفيضها وتقليلها إلى أقلّ ممّا هي عليه .

2) Prosodème هو وحدة نطقيّة عروضيّة ، أي علامة تلحق مقطعا غير الفونيم وهي أصغر منه ، كذلك النّطق الخاصّ بنطق الكلمات عروضيّا La More كما يكون أكبر من الفونيم كالمقطع أو المورفيم ، أو الكلمة أو الجملة ، بتحريك عناصر حاضرة متواجدة بكل ملفوظ ، نحو الاستعلاء الكامل في لحن الكلام أو التّنغيم Intonation ، أو الضّغط الكامن في النّبر Stress et accentuation .

Du Bois et autres, .Dictionnaire de Linguistique, Larrousse. Canada 1973 P 397-398

Du Bois et autres, .Dictionnaire de Linguistique, Larrousse. Canada 1973 P 236.

3) Cénémes ويستعمل هـذا المصـطلح ليرمز إلى الفونيم عند يلمسلف واللّسـانيّين المنتمين إلى مدرسة «كوبنهاجن Copenhague» ، ليعيّن به ، من حيث التّعبير ، الوحدات التّمييزيّة الصّغرى بتجريد الطّبيعة الصّوتيّة لذلك الكلام المعـدود توابـع ومكمّلات Accessoires عرضا. إنّ السّينيم Cénémes هو صورة تعبيريّة تقابله صورة المحتوى المسمّاة Pléreme .